

كلمة رثاء للأستاذ الكبير المرحوم محمد محفل رحمه الله

قال تعالى في كتابه العزيز :

" وما جعلنا لبشر من قبلك الخلدَ أفانٍ مِتَّ فهم الخالدون . كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالبشر والخير فتنة وإلينا ترجعون " (الأنبياء ٣٥)

سبحان الذي قهر عباده بالموت .

الموت الجسدي هو الحقيقة الأزلية التي لا يستطيع أي مخلوق أن ينكرها ، أو أن يهرب منها . ولكن حاول بعض رجالات القرون العتيقة أن يتجاوزوها بالوصول إلى الحياة الأبدية بطرقهم الخاصة ، مثل جلجاميش ملك مدينة أوروك السومرية الذي عاش في القرن السابع والعشرين قبل الميلاد . فقد قام بمغامرات كثيرة بصحبة صديقه إنكيديو . لكن بعد أن قررت الآلهة إماتة إنكيديو ، قرر جلجاميش البحث عن الخلود ، فذهب إلى ديلمون ، تلك الجزيرة البعيدة التي يقيم فيها أوتنابشتيم بطل الطوفان السومري الذي أنقذ البشرية من الفناء ، ليرشده إلى طريق الوصول إلى الحياة الدائمة . لكنه فشل في الامتحان الذي أخضعه له أوتنابشتيم ، وخسر حتى النبتة التي تعيده شاباً وهو في طريق العودة إلى مدينته أوروك . إلا أنه نجح من حيث لا يدري في تحقيق الخلود المعنوي والفكري ، إذ أصبحت ملحمة مشهورة ومعروفة لكل شعوب الأرض قديمها وحديثها .

وهذا ما حققه أيضاً أستاذنا الراحل من خلال مؤلفاته وأفكاره الباقية التي ستبقى خالدة . فقد تعلمنا منه مبادئ الأخلاق والإنسانية قبل كل شيء . هذا بالإضافة إلى معارفه ومعلوماته في التاريخ القديم واللغات القديمة . فقد كان معلماً لنا في تاريخ الإغريق والرومان واللغات الآرامية واللاتينية والإغريقية . وكان هادياً لنا في تاريخ سورية القديم ، ولا سيما التاريخ الآرامي الذي كان له باع طويل في البحث فيه وتدريبه لطلابه .

لقد تعرفت إليه في سبعينيات القرن الماضي عندما انتسبت إلى قسم التاريخ في جامعة دمشق ، فوجدت فيه المعلم والأستاذ والصديق والرفيق والإنسان المتواضع الذي يحترم جميع الناس ويقدرهم دون النظر إلى وضعهم المادي أو الطبقي أو العلمي ، أو انتمائهم الديني أو السياسي . كنت ألتقيه بين الفينة والأخرى ، ولا سيما عندما كان رئيس تحرير مجلة دراسات تاريخية ، أو أتحدث معه هاتفياً ، وفي كل مرة كنت أتعلم منه أشياء جديدة . كان كنزاً لا ينضب من المعلومات في مختلف المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتاريخية والفكرية وغيرها . وبقي ذهنه متوقداً معطاءً حتى أواخر أيامه ، فقد التقينا قبل وفاته بنحو ثلاثة شهور في مركز تطوير المناهج التربوية التابع لوزارة التربية ، وتناقشنا معه في بعض القضايا التربوية والتاريخية ، فحلل وشرح وأفاض في الشرح دون أي مشكلة في التعبير أو الإيضاح ، اللهم إلا بحة بسيطة في صوته . لقد كان أستاذنا الراحل عملاقاً في كل نواحي الفكر والتاريخ والتربية ، وفتقد بغيابه مصدراً أساسياً من مصادر معرفتنا وتفكيرنا . لكنه سيبقى حياً بأفكاره التي تعلمناها منه على مر الأيام ، ولا سيما أن بعضاً من كتبه مازال يُدرّس في قسم التاريخ بجامعة دمشق ككتاب تاريخ الرومان (الذي شاركه في تأليفه الأستاذ الدكتور محمد الزين) الذي طُبِعَ عدة طبعات . وكذلك كتاب المدخل إلى اللغة الآرامية الذي طُبِعَ طبعة جديدة هذا العام ، ويُدرّس في قسم التاريخ منذ العام ١٩٧٩ . وكخليفة له في تدريس اللغة الآرامية في القسم طلبت إعادة طباعته كتحية شكر وتقدير له على جهوده في تعليم مئات لآلاف من الطلاب السوريين والعرب . وعندما صدرت هذه الطبعة اتصلت به لأزف إليه الخبر ، لكنني لم أستطع مكالمته . كان ذلك قبل أسبوعٍ من وفاته .

أخيراً لا بد من الإشارة إلى عبقريته في قراءة الحاضر واستقراء المستقبل اعتماداً على معرفته في التاريخ القديم وعلم الرجال . وأذكر هنا مثالين اثنين عن ذلك فقط . فقد تنبأ بمقتل إسحق رابين رئيس وزراء العدو الصهيوني قبل اغتياله بأسبوع (عام ١٩٩٥) ، إذ رأى في ممارسة الذين اغتالوه ، والذين ينتسبون إلى إحدى الجماعات اليهودية المتطرفة ، إشارة إلى ذلك ، فقد كانوا يدورون حول بيته ويشتمون أمه .
والمثال الثاني رؤيته لعزمي بشارة حينما زار دمشق ولقاه به ، إذ قال عنه إنه غير نظيف ومجنون للقيام بمهمة تخدم العدو الصهيوني ، وقد صدقت رؤيته .
إن هذين المثالين وأمثلة أخرى كثيرة لأمجال الآن لذكرها ، تدل على عبقريته الفذة في استقراء المستقبل والحكم على الرجال .
رحمك الله يا أستاذنا الكبير محمد كامل محفل ، يا أبا فداء ، وتغمذك بواسع رحمته ، وأسكنك فسيح جناته . ولكم أنتم سيداتي وسادتي من بعده الصحة والعافية وطول البقاء .

عيد مرعي

دمشق في ١٣ / ٢ / ٢٠١٩